موسوعة بحجم لبنان

عدنان ضاهر

أمين عام مجلس النواب اللبناني

د. رياض غنام

عدنان ضاهر

موسوعة بحجم لبنان

د. رياض غنام

كثيرة هي الكتب التي تصدر في هذه الآونة، لكن القليل منها ما يستحق التوقّف أمامه. ففي زمن الفيض يندر وجود الدر ويصبح من واجب البحّار أن يغوص نحو الأعماق طلباً للآلئ وثمين المجوهرات. وهذه الحالة تنطبق على قبطان عاش ردحاً طويلاً من الزمن في ظلال الإدارة، وربما كان العكس صحيحاً فالإدارة تظلّلت به سنوات وسنوات تأخذ من رصيده الفكري والأدبي حتى الاستنزاف وكادت أن تلفظه إلى التقاعد كما لفظت العديد من عظماء رجالنا ومفكرينا دون أثر يذكر أو فكر يدوم.

وأمين عام مجلس النواب عدنان ضاهر هو من أبناء القلة في هذا الوطن ممّن اختزنوا معرفة سموا بها نحو اليقين، انتقلوا بها من هيولى التجرد إلى حس الواقع، ومن النظريات المجردة إلى حالة واقعية ملموسة، وأشهروها حقيقة مجسدة في كتاب. هو من أولئك الذين تنكبوا اليراع وغمسوا ريشته بمداد المعرفة الممزوج بعرق الجبين وكدح الذات، ليتزودوا بزاد الرحمن وطهر الكلمات العصماء، أوليست الكتابة رهبنة وتبتلاً وانزواء، يبتعد صاحبها عن الأهل والرفاق، يهجر ليالي الأنس والسعد ومصاحبة الخلان ليأنس إلى اليراع والقرطاس ورائحة الحبر المتدفق من عصارة الفكر وتوقد الذهن، ليكون الشمع المتألم في مواقد المعرفة، والدمع المنحدر من محاجر الروح، يزول الغث ويبقى الأصيل، يزول الزبد الذي يذهب جفاء، وما ينفع الناس يمكث في الأرض كسنبلة القمح وشجرة الزيتون.

عدنان ضاهر في إطلالته الآنية في كتابه «الموازنة العامة بين الواقع والدستور 1920 - 2001، تكاد لا تصدق في أي بحر يبحر، وفي أي محيط يجذف. بإمكانياته يقدم على عمل تعجز عنه كبرى المؤسسات، يطل به على المكتبة اللبنانية بعشرين مجلداً تحتوي على تاريخ لبنان المالي من خلال دراسة الموازنات العامة ومناقشاتها على مدى حقبة تتجاوز الثمانين سنة. إنها تسجيل لوقائع تاريخنا المالي والضرائبي

بكل وقائعه وانعكاساته وجوانبه الإدارية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والقضائية، فمن خلاله يعيد كتابة تاريخ لبنان من خلال مناقشات نوابه على مدى حقبة طويلة اكتنزت بكل الأفكار والنظريات السياسية والمدارس الاقتصادية والاجتماعية فضلاً عما شهدته الساحة اللبنانية من تجاذبات سياسية وتيارات مختلفة بين موالاة ومعارضة ورجال حكم ونواب وساسة ورجال فكر وجهاد.

إن محاضر مجلس النواب تجسد تأريخياً حقيقياً للحياة اللبنانية بشتى أشكالها وفصولها. وهي تعتبر رافداً غنياً للباحثين والسياسيين فضلاً عن كونها مصدراً أساسياً لدراسات عديدة وأبحاث حال دون ظهورها عدم توافر مجموعة المحاضر بشكل واسع، وهي وإن وجدت اقتصر وجودها على أجزاء متناثرة في مكتبات خاصة يصعب الوصول إليها، وهذا الأمر حال دون صدور دراسات وأبحاث جدية وملتزمة عن كيفية الموازنة وتصورها والعوامل المؤثرة في تحضيرها وقطع حساباتها.

هذا الواقع حدا برئاسة مجلس النواب الحالية إلى إعادة نشر محاضر المجلس على C.D خاص وضع بتصرف النوابع وبعض المؤسسات الجامعية، وقد لاقت هذه الخطوة ترحيباً من الباحثين الذين أصبح باستطاعتهم اللجوء إليها في أي وقت شاؤوا وخصوصاً في مكتب المجلس النيابي.

وكان قد سبق ذلك قيام الباحث يوسف كزما الخوري بنشر «البيانات الوزارية اللبنانية ومناقشاتها في مجلس النواب» منذ سنة 1926 وحتى سنة 1984 في ثلاثة مجلدات صدرت عن «مؤسسة الدراسات اللبنانية». وعلى الرغم من أن هذه البيانات جاءت لتغطي جانباً حصرياً من نشاطات الحياة البرلمانية اللبنانية مقتصرة على البيانات الحكومية والمناقشات التي رافقتها إلا أنها كانت باكورة التعاطي مع ماضر المجلس النيابي. مقدمة للنهل من هذا المعين المغمور.

واليوم يطل علينا الأستاذ عدنان ضاهر من خلال مناقشات الموازنة العامة في عمل موسوعي ضخم قدّم له كل من دولة رئيس مجلس النواب الأستاذ نبيه بري، ورئيس الجمهورية الأسبق شارل حلو قبل وفاته بشهر، كما قدم له معالي الوزيران

مروان حماده وفؤاد السنيورة، والنائب والوزير السابق نصري المعلوف، والقاضي عبدالله ناصر.

لقد صدّر المؤلف كتابه بجزء خصصه لدراسة الموازنة بشكل عام سواء في التعريف بها من الناحية اللغوية أم الدستورية أم القانونية، ثم استعرض المشاكل التي يعاني منه الاقتصاد اللبناني معرجاً على النظم الإدارية، مستعرضاً تطور الحياة المالية والضرائبية في لبنان من الناحية التاريخية. ثم أورد مجموعة كبيرة من اللوائح الإسمية لأعضاء مجلسي القائمقاميتين ومجلس الإدارة الكبير في عهد المتصرفية ثم لأعضاء المجالس التمثيلية ومجلسي الشيوخ والنواب، انتهاء بمجلس النواب الحالي المنتخب سنة 2000، كذلك ضم الكتاب مجموعة من الإحصاات التي تناولت رؤساء الجمهورية ورؤساء المجلس النيابي ونواب ورؤساء المجلس وأمناء السر والأعضاء المفوضين، وأعضاء اللجنة المالية منذ سنة 1922 مع رئيسها ومقررها وغير ذلك من المسائل المهمة. وقد جرى ضبط كل ذلك في إطاره التاريخي والجغرافي بالاستناد إلى مجموعة كبرى من المصادر والمراجع والمستندات الأصلية، كما وضع مجلداً خاصاً بالفهارس لتسهيل الرجوع إلى الأشخاص والموضوعات المطلوبة.

عدنان ضاهر المتصوّف في محراب مجلس النواب، المتألق برزانته وتواضعه وإنسانيته، نذر نفسه للحقيقة العلمية المجردة وكرّس موقعه الوظيفي إدارة وتوثيقاً وتحريراً، فأضاء على مراحل تاريخية مهمة في عمل مؤسسة الدولة الديمقراطية الأم أي مجلس النواب، فكانت ثمرة نفسه المعطاء وسهره الدؤوب عشرين مجلداً قدمها بإحاطة شاملة وموضوعية علمية بنّاءة هدية ثمينة أغنى بها المكتبة اللبنانية والمكتبة العربية على حد سواء.

طوبى لعدنان ضاهر الكاتب والإداري والإنسان.